يوسف السباعي

روائي الكادحين

بقلم فاضل السباعي

لا نكران في ان الروائي يوسف السباعي شاغل القراء ومالىء اذهانهم بعديد قصصه ، القصير والمطول ، المشحون بمواقف الحب تستدر دمع القاريء رثاء للبطل الملتاع والبطلة التي قضت صريع الحب والوفاء (١) ... وهنا يكمن الباعث في عدم ارتياح النقاد لنتاج يوسف ـ في معظمه ـ حيث لا يرون فيه ذلك الادب المسهم في تشخيص المثالب والعلل ، المتطلع باخلاص الى العلاجات المجدية ، الا ان مطولته « السقا مات » لتفيض بهذه المعطيات افاضة قل في الحق نظيرها .

وقصة « السقا مات »(٢) ترصد قطاعا للطبقة الفقيرة ـ او ، بالتعبير المستورد : البروليتاريا ! ـ الكادحة في سعادة وصمت لا يشغلها الا ان تمضي يومها طاعمة في انتظار غد مؤمل يحمل في تضاعيفه الفرج .

والقصة تفص بالكادحين امثال : « المعلم علي دنجل » المتربع في كشك المياه ، و « عم سلامة » صاحب مطعم « فول الامرا » ، و « علي الحمى » المبيض ، و « محمود الخشت » الجزار ، و « زكي زين » الخضري ، و « الحاجة زمزم » صاحبة المسمط ، و « الحاج سرور ابو الفرح » الحانوتي ، و « عزيزة نوفل » المومس ، و « شرف الدين الدباح » القواد ... على ان اظهر شخوص القصة وامتعهم : « المعلم شوشه الدنك » سقاء الحي ، وابنه الصبي « سيد الدنك » ، و « الست ام آمنة » الضريرة ، ثم « شحاته افندي » مطيباتي الجنازات (٣)..

والمؤلف يصيب حظا بعيدا من النجاح في رصد الحياة القاهرية ببؤسها وسعادتها وهزلها وجدها وشعبيتها وروافدها جميعا . فهو يعرض لنا دور ذلك السقاء الذي يحمل قربة المياه ليفرغها في الاوعية قبل ان تصلها انابيب المياه ، ويحملنا الى قلب المطاعم الشعبية فنرى كيف يتناول غداءه « حسين القرداتي » و « محمود مسطرين البنا » وسائر ابناء « الحته » ، وكذلك يدخل بنا الى كتاب « الشيخ كفته » فيسلينا بمرأى الصبية الى « درب القط » فنشهد ما تنفتق عنه اذهانهم من العاب يتسلون بها بعد نهار مجهد ، ومن طرف اخر يصحبنا الى احتفال بالمولد يقام في ضريح بالحي ، ويطوف بنا على مقاهي القاهرة الشعبية ، ويسير بنا في موكب ميت في طليعته حفنة من « الطيباتية » ، المشيعين المحترفين ، وفي فصلين اخرين يشهدنا فرحا يقام في الدرب ، ويذهب بنا الى الحمام يغتسل بها شوشه الدنك وابنه سيد !..

والقصة بعد هذا لا تعرض لحياة اسرة الدنك وحدها ، بالرغم من ان افرادها هم الابطال الرئيسيون في القصة ، وانما تعرض لحيوات طائفة من الناس في « درب القط » و « درب عجوز » و « درب السماكين » جميعا ، يودعون نهارهم البائس السعيد متطلعين الى استقبال غد اقل بؤسا واكثر سعادة . والمعلم شوشه ، السقاء ، كان يأمل ان يودع عهده بالقرب يعتلها الى عربة يدفعها بيديه ويطوف بها على البيوت ، مؤملا ان يتربع في الكشك يوزع مياه الشركة على السقائين ونساء الحي ، فهو اولى من « علي دنجل » الذي لا يتورع عن مغازلة النساء اذ يقبلن الى الصنبور طالبات الماء . وشوشه رجل وادع طيب راض بحظه من الدنيا على كل حال ، وهو مثال لـ « ابن البلد » الشهم الذي يتطوع لانقاذ « شحاته افندي » من براثن « الحاجة زمزم » عندما دخل هذا مسمطها طامعا في ان يصيب لديها غداء طيبا مقابل كلمات من الغزل يهدهد بها تصابيها لما بدا له من ولعها بالغزل وتحريضه عليه ، الا انه كان في وهم واهم كاد يودي به الى شر مآل .. ذلك ان الحاجة زمزم ، عندما ادركت وقت الحساب ان شماته افندي لا يملك غير الغزل مليما ، اوعزت الى خادمها المطيع « جاد » بان ينزع عن الزبون كل ما على جسده من ملبس ... وقد نشط الخادم ، وشوشه في المسمط يشهد متألما ، في نزع معطف الرجل ، ثم مد يده الى ذيل الجلباب يهم برفعه ، فاذا المعلم شوشه الشهم يهب اليهم ويحول دون ذلك بان يدفع ما على الزبون من حساب .

وتنعقد من يومها اصرة ود بين المعلم شوشه وشحاته افندي . اذ يقبل الاخير الى السقاء في غد الحادثة شاكرا جميل احسانه رادا اليه ما دفع عنه . فيتبين للمعلم شوشه ان شحاته لا يملك من حطام الدنيا مالا ولا مأوى غير صرة في يده يقول ان فيها « عدة الشغل » ، فيعرض عليه ان يبيت ايامه في غرفة خالية في داره الى ان يقيض الله من لدنه فرجا . ثم لما يعرف السقاء في الظهيرة ان « صنعة » الضيف « مطيباتي » يحس نحوه بالكره والنفور ويتمنى لو ينصرف عنه تشاؤما منه وتطيرا ، الا انه كان قد نزل في الغرفة ولم يعد من اللائق صرفه . على ان الطيرة سرعان ما تتلاشى من نفسه بعد ان يصطحبه شحاته الى المقهى الذي يمضي

(١) لعل من اطرف ما عرفنا .. ان طالبات التجهيز بحلب ، كن يتداولن مطولة يوسف « اني راحلة » في فجر ظهورها ، فيقرأنها في الدرس في غفلة من مدرساتهن ، ويذرفن الدموع لوعة واسى !

(٢) نشرت « السقامات » اقصوصة في مجلة « الهلال » عدد اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٤٨ .. ثم ما لبث المؤلف ، بعد ان تبدت له «شعبية» موضوعها وانسانية شخوصها ، ان جعل منها قصة مطولة .

(٣) ان « شحاته افندي المطيباتي » شخصية انسانية ظريفة ملء المعنى وقد عقدنا لها فصلا قائما بذاته درسنا فيه ما اتسمت به من صدق هو علة ظرفها وانسانيتها .

فيه « المطيباتية » لياليهم عادة ، وهناك يفيض على مسمعه بفلسفته عن الموت ، فيذهب من نفسه كل اثر للرهبة والتشاؤم .

وكان كلما صادفها في الحي اوسعها غزلا يجيد منه المثيل . ويتصل بعلمه ان المرأة « ماشية » وان « شرف الدين الدباح » قوادها الامين فيتفق معه على ان يلقاه في مساء غد ليصطحبه الى حيث يطفيء في احضانها غلمة تلهب جسده من وقت طويل . وكان على شحاته ان يخرج في ذلك اليوم لتشييع جنازة وقد فتح الله عليه ببعض الجنازات ، وهو يوصي قبل خروجه حماة المعلم « الست ام آمنة » بان تصنع له «شوربة» بمجموعة منتقاة من اللحم والعظام استحضرها من « المعلم الخشت » الجزار لتكسبه في تلك الليلة صلابة ورجولة .. وفي الجنازة يحصل من زميله « الشيخ سيد الخولي » على قطع من المخدرات ، « حشيش » و « ملوه » . وفي عودته يمر بدكان « الشيخ عبيد العطار » فينفحه هذا مجموعة مختارة من العطارة : « جوزة الطيب » و « عود القرح » واشياء اخرى تزيد الرجل فحولة في ليلته المرتقبة !.

وفي الظهيرة يتناول شحاته افندي « الشوربة » .. ثم يطعم من غداء كانت اعدته ام امنة للمعلم شوشه .. وبعدها يغلي ما احضر من عند العطار في السمنة ليأتي عليه في لمح البصر ... ثم يصنع فنجانا من القهوة يذيب فيه « الملوه » .. ومن ثم يلف سيكاره يخالط تبغها « الحشيش ».. ويغفو ، استعدادا لليلته المرتجاة .. ولكن شحاته افندي لا يفيق ... يظل نائما .. يموت .. اجل ، يموت شحاته افندي ، وفي هذه الميتة تتجسد ادواء مجتمعنا تجسدا يبلغ حد الروعة الرائعة . في ميتة شحاته تطرح قضايا برمتها ... مات شحاته ابن شعب يتحرق حرمانا واغتلاما .. مات شحاته ابن شعب يرى ـ مخلصا ـ في « الشوربة » ، وفي ذاك الخليط من العطارة ،وفي الحشيش والملوه مكسبا للفحولة .. مات شحاته وهو وشيك ان يحقق حلمه المؤمل في نومة بين احضان عزيزة نوفل .. ثم تأمل مدى الفرق بين النومتين !

ويالم المعلم شوشه لموت صاحبه الفيلسوف ، ويشيعه حتى مستقره الاخير ، مرتديا ذات الحلة التي كان شحاته يرتديها اثناء قيامه بتشييع الجنازات . ويصاب شوشه بارتهاب شديد وهو يحمل الميت داخل المقبرة، فيعد ذلك هزيمة له . وعندما يقبل اليه في اليوم التالي احد زملاء شحاته يستحثه على لبس الحلة والخروج بها في قافلة « المطيباتية » بدلا من شحاته الذي خلا موضعه لتشييع جنازة عاجلة ، فانه يقبل بعد تردد ، على امل ان ينتصر على الارتهاب في هذه الجولة الثانية .. بيد انه لا يكتب له الظفر والغلبة ، ويكون حزنه وبكاؤه في التشييع موضع ضحك زملائه الجدد . الا انه يحس ، مع تكرار قيامه بهذا العمل ، احساس الانتصار ، على الموت ، على الخوف من الموت ، فتقر عينه ويرتاح لعمله الجديد الاضافي .

ثم يقدر للمعلم شوشه ان يصل الى حلمه المؤمل في التربع على كشك المياه بعد ان يفصل « علي دنجل » لسوء سلوكه . ولكن شوشه لا يهجر تشييع الجنازات ، لانه بات يجد فيه لذة روحية وانتصارا اذ يخرج اليه بعد فراغه من عمله في كشك المياه كل يوم .

وفي مهنته الجديدة ، يلقي اليه الفضوليون من اهل الحي نظرات لا تسر . على حين يكون « سيد » ابنه في غاية من الخوف والطيرة .. انه يخشى على ابيه ان يموت كما مات شحاته ، المشيع ، لابس الحلة المشؤومة. ويفضي اليه بخواطره وبخبر تلك الانشودة التي جعل الصبية في الكتاب يرددونها على مسمعيه كل يوم : « ابوك السقا مات .. بيمشي في الجنازات ... ويوصل الاموات .. » ، ويرجوه الكف عن التشييع حبا له واعزازا . فينزل الاب عند الرجاء ، ويعزم على هجران الحلة جميعا .. الا ان المعلم شوشه يموت ، في اليوم التالي ، تحت انقاض بيته !. .

يتضح ان القصة تستقطب ـ بالدرجة الاولى ـ تجربة الموت ، موت السقاء شوشه الدنك . الا اننا لا ننفعل ازاء هذه التجربة في شطريها : ان في احساس السقاء بالارتهاب وعزمه على قهر هذا الاحساس ، او ازاء موته في منتهى القصة . والسبب في عدم انفعالنا واضح . ذلك ان المؤلف حمل السقاء فلسفة لا يحتملها امثاله ، واجرى على لسانه معطيات فكرية لا تخلو من ايغال ، ثم هو لم يرهص اوت بطله بما ينبغي من مقدمات ، فأعوز الموت الانسياب والعفوية ، فضلا عن اننا بتنا ـ في وحي من « عنوان » القصة ـ نترصد موت السقاء ، فاذا هو يقضي بميتة عمادها « القدر » .. يهبط عليه سقف البيت ، وحده ، لان سيد كان قد مضى لقضاء حاجة ما ، بينما كانت الجدة في الدرب تسأل عن حفيدها الذي طال غيابه . ولكن ذلك لا يعيب القصة على كل حال . فانها تضم في فصولها ـ عدا تجربة الموت ـ تجارب شتى ماتعة. ولعل شخصية « الست ام آمنة » الضريرة الطيبة من الشخصيات الانسانية التي اصاب المؤلف في رصد ايثارها وحنانها حظا بعيدا من الصدق الفني ، ولو انه لم يكن في القصة من الشخوص الصادقة غير ام آمنة لكفى القصة تحليقا في عالم الابداع .

والتقنية بعد ذلك مستقيمة لا غبار عليها . وقد استغرقت الثلاثة الايام الاولى في القصة معظم الاحداث ، وان هذا دليل فيض وثراء في خيال المؤلف على ضيق المجال الزمني .

الا ان الزمن بدأ يتخلخل بعد هذه الايام الثلاثة ، فيمتد الى حوالي اسبوعين او ثلاثة ، ويصاب باجهاض في فصل ملحق قصير من صفحتين، سماه المؤلف « الخاتمة » حيث يحتل فيه سيد الصغير محل ابيه في كشك المياه ، وترمم الدار المنقضة ، ويعود اليها الصبي وجدته التي يتوفاها الله بعدعمر طويل .. « واضحى سيد رجلا ، وتزوج ، وانجب ولدا ...»

وقد راينا المؤلف ، في النصف الاول من القصة ، يأبى ان يدعنا وشأننا مع ابطاله ، فنراه يصر على ان يتدخل بيننا وبينهم كلما تراءى له ذلك .. فيقول مثلا في السياق : « لنتبع الرجل وابنه .. ولنتوقف برهة ... » (الصفحة ٥٤) ، او « يبدو ان من الخير ، قبل ان نستمر في وصف المباراة ، ان نوضح للقاريء .. » (٧١) ، وكذلك في كل من الصفحات : ١٢ ، ١٠٧ ، ١٢٨ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ... وكان الاقرب الى اصول الفن القصصي الا يهبط علينا المؤلف داسا نفسه ما دام قد آلى ان يسلط الاضواءمنعل وان يدعنا نفهم من اقوال الابطال وافعالهم مقاصدهم.

وكنا ، قبل اليوم ، قد عرفنا في المؤلف حرصا على ايراد الحوار بالعربية الفصيحة . فاذا هو يتنكر لها في هذه القصة ليغدو رائدا من رواد العامية لا يشق له غبار . ويضمن « المقدمة » نظرته في هذا المضمار ، مستشهدا برأي احد الادباء الذي قال بعد ان قرأ « زقاق المدق » لمحفوظ: « انها من ابدع ما قرأ .. ولا يعيبها الا ان الحوار جرى باللغة العربية .. ولو كان باللغة العاميةلبلغت منتهى الروعة » .

ويمكننا ان نقول في «زقاق المدق» : انه كان يعيبها حقا ان يجري الحوار فيها بالعامية المصرية ، التي استساغها قراء مصر ، فان قراء العربية من غير المصريين لن يستسيغوها ، والكاتب العربي ـ المصري وسواه ـ ليس

مطالبا بان يكتب لشعبه الذي تحده الحدود السياسة الضيقة فحسب ، وانما لافراد الامة العربية جمعاء ، وهم ـ في معظمهم ـ لا يفهمون اللهجة المصرية وسائر لهجات الشعوب العربية الا بالكاد . وبهذا المعني فهم محفوظ وظيفة الاديب ، فرأيناه حريصا على ان يحكي حواره بالعربية الفصيحة ـ لا الفصحى ـ على الرغم من الانتقادات العديدة التي وجهت اليه من رواد العامية المصرية .

ويقول المؤلف في مقدمته انه كان عزم في بدء كتابة « السقا مات » على اجراء الحوار (٤) بالعربية « ولكني لم اكد اكتب بضع صفحات .. حتى وجدت ابطال القصة ينطقون على الرغم مني باللغة العامية .» ولقد رأينا اول حوار في القصة (٥) فصيحا سائغا لا يعيبه شيء ، ليرتد بعد ذلك الى العامية .. وانا لنتساءل عما دفع المؤلف الى العودة الى الحوار الفصيح في بعض صفحات القصة (٦) ؟ أهو حنين الى التسامى ؟ ام اصرار على دحض دعوى « المتفصحين » واثبات بطلانها ؟ لقد كسب المؤلف في هذه القصة انصار العامية المصرية ، ولكنه خسر من عداهم من رواد العربية . وان في القصة من العاميات الموغلة في اقليميتها ما لا يفهمها من المصريين غير القاهريين !

والحق ان الحوار العامي ايسر جريا في سن القلم من الفصيح الذي تصقله الروية والامعان . ولكن ، متى كان الجمال والفن رهيني يسر وهينة؟

والمؤلف يزعم انه انما يكتب للعامة الذين هم « في اشد الحاجة الى زاد من الادب الذي يفهمونه » . اذن ، فالعامة يعسر عليهم فهم « الحوار » الفصيح ، وبالتالي :فهم « السياق » الفصيح ايضا .. وهذا ما يحتم على المؤلف ان يكتب بالعامية الحوار والسياق جميعا ، ليتاح للعامة ان يفهموا ما يقدم لهم من زاد قصصي (٧) .. فتأملوا هذا الادب العجيب !

ولكن ، كيف يقبل القول بان يوسف السباعي يعني بالعامة ، وكتبه لا تستطيع الا الخاصة الموسرة شراءها (٨) ؟ وان كاتب السطور ما كان ليقتني نسخة من « السقا مات » في طبعتها الاولى المترفة لتي صدرت من سنين ، لولا ان صدرت مؤخرا في حلة شعبية محتملة الثمن (٩)

ذلك تقويمنا لقصة « السقا مات » ، موضوعا وتقنية ولغة ، نرجو الا يضيق به صدر مؤلفها (١٠) . وان رأينا ، مهما ضم من ملاحظات ، لا يغمط القصة روعتها . فانها ، بموضوعها وشخوصها الانسانية ، لترتفع بلا ريب الى مستوى الاعمال القصصية العربية الرفيعة . وان في وسع الاستاذ يوسف السباعي بعد اليوم ان يهجر مدرسته تلك الرومانسية العتيقة ، ليصبح بحق روائي الكادحين .

والى الصديق ، يوسف السباعي ، التقدير والاعجاب .

حلب — فاضل السباعي

---

(٤) يعتمد مؤلفنا في تحليل شخوصه على الحوار ، دون « المونولوج الداخلي » .

(٥) من الصفحة ١٦ ـ ١٨

(٦) في الصفحات ٢٧ و ٤٧ و ١٦٢

(٧) باسم العامة ، الذين لا يقرؤون .. تمزق العربية وتقطع اوصالها !

(٨) مما استلفت الانظار في حينه ، ان قصة « رد قلبي » ضم جزآها في علبة من المقوى انيقة ، وبيعت باحدى عشرة ليرة سورية !

(٩) سلسلة «الكتاب الذهبي» العدد الثالث والخمسون ، نوفمبر ١٩٥٦

(١٠) كنا بعثنا ، من حوالي السنتين ، الى المؤلف رئيس تحرير « الرسالة الجديدة » ، بمقالة ننقد فيها احد آثاره .. فطواها في صمت .

المجد للزيتون

الى الامة العربية الصامدة

بمناسبة احداث الاردن الاخيرة

لا تجزعي ... ان هب اعصار
فصوّحت في الروض أزهار
لا تيأسي ... لا تيأسي أن دجا
ليل ففي افقك اقمار
بشراك بالنور ... فلا تجزعي
ان ناوأت سعيك اقدار
ان غام افق ، واختفت انجم
وساورت حلمك اخطار
غدا يشيع الصحو في سوحنا
وتجتنى ثمة أثمار
غدا يناغي الفجر احلامنا
فتغمر الاعين انوار
غدا تغني الارض أمجادنا
فتنتشي في الدوح اطيار

***

لا تجزعي من مستبد عتا
فتاه في عطفيه جزار
فالبغي لا يبقى ... وأسواره
على ذويها سوف تنهار
وكل جلاد سيجتاحه
في كل قطر منه ثوار
وموكب ((البعث)) سيجتثه
فليس يبقى منه ديار

***

بشراك يا امتنا ... في غد
يزهو على مفرقك الغار
لا ترهبي الليل واشباحه
ما دام في دنياك احرار
منك الضحايا ... لم تزل حية
في دمها يستصرخ الثار
فيك نفوس .. لم تزل حرة
لم يستملها قط دولار
فالمجد للزيتون في ارضنا
والموت للاحلاف والعار

محمد سعيد المسلم